

يظهر شرق أوسط جديد على خلفية قرار الولايات المتحدة بتحديد "الحجم المناسب" لتموضعها العسكري والدبلوماسي، والتأكيد المتزايد لدول المنطقة، ومشاركة روسية وصينية أكبر في شؤون الشرق الأوسط. تؤدي هذه التحولات الجيوسياسية إلى تآكل هيمنة واشنطن طويلة الأمد في الشرق الأوسط وخلق نظام جديد متعّد أقطاب. تسارعت هذه التحولات الجيوسياسية بفعل الحرب الروسية على أوكرانيا واشتداد المنافسة العالمية بين القوى العظمى. بوعد أن اعتادت أوروبا منذ فترة طويلة على التحرك في فلك الولايات المتحدة تواجه الآن جواراً جنوبياً يتسم بالتحدّي والتنافسية بشكل متزايد. أدت الحرب في أوكرانيا إلى زيادة المنافسة على النفوذ في المنطقة بين الدول الأوروبية ومنافسيها الاستراتيجيين الرئيسيين، كما تسبب الغزو الروسي في حدوث صدمات من خلال أسواق الطاقة والغذاء العالمية، يمكن أن تؤدي إلى تعميق الالتزامات الانسانية في وقت يعاني فيه الشرق الأوسط بالفعل من انهيار اقتصادي واسع النطاق، قد تكون لذلك آثار غير مباشرة على القضايا المتعلقة بالهجرة والإرهاب – وهما تحديان لطالما سيطرا على المخاوف الأوروبية في المنطقة. كما أكدت الحرب على الأهمية المتزايدة للشرق الأوسط كمصدر للطاقة، فيما تتدافع الدول الأوروبية لتقليل اعتمادها على النفط والغاز الروسي. كلّما أصبحت أوروبا أكثر تشابكاً مع الشرق الأوسط، ازدادت نقاط ضعفها. تجد دول الشرق الأوسط وشمال إفريقيا نفسها في وضع قوي، مع وجود مصادر جديدة للضغط لاستخدامها ضدّ العواصم الأوروبية أثناء التحوط بين القوى العالمية. إن إحجام "إسرائيل" والمملكة العربية السعودية والامارات العربية المتحدة عن الاصطفاف مع الغرب بشأن أوكرانيا – بالإضافة إلى جهود بكين المتسارعة لدفع ثمن نفط الشرق الأوسط باليوان بدلاً من الدولار الأميركي – يزيد المشهد الجيوسياسي تعقيداً. يضاف إلى ذلك احتمال أن تستخدم روسيا وجودها في دول مثل ليبيا وسوريا للدّ على الدول الأوروبية لدعمها أوكرانيا. وقد يؤدي الانهيار المحتمل للمفاوضات النووية الإيرانية إلى تعزيز هذه الديناميكيات. للتحول الجيوسياسي في الشرق الأوسط تداعيات هائلة على أوروبا، لكن الاتحاد الأوروبي والدول الأوروبية لا يزال ينظر إليها على نطاق واسع على أنها جهات فاعلة غير مهمة في المنطقة. إن اعتماد الكتلة منذ فترة طويلة على الولايات المتحدة ونقاط الضعف التي يمكن التنبؤ بها – الانقسام وعدم القدرة على الانخراط في خفض المنافسة بين القوى العظمى – جعلها في كثير من الأحيان غير قادرة على تشكيل التطورات. هذا أمر يحتاج إلى التغيير. بينما يسعى الأوروبيون إلى تقديم أنفسهم على أنهم لاعبون أكثر استعداداً وقدرة في النظام العالمي التنافسي فإنهم بحاجة إلى معالجة الطرق التي يؤثر بها الشرق الأوسط أيضاً على المصالح السياسية والاقتصادية والأمنية الأساسية. إن تطوير نظام إقليمي متعدد الأقطاب يسلط الضوء على حاجة الأوروبيين لأن يصبحوا فاعلين إقليميين أكثر تأثيراً. يمكن أن يوفر مساحة لتجمعات الدول الأوروبية ذات التفكير المماثل، بما في ذلك النرويج والمملكة المتحدة، لتعزيز المصالح الأوروبية بشكل أكثر فعالية. سيعتمد الكثير على ما إذا كان يمكن للأوروبيين تجنّب المعاملات الضيقة – مدفوعة بشكل خاص بالاحتياجات الجديدة للطاقة – من خلال صياغة مواقف أكثر استراتيجية وجماعية بشأن القضايا الرئيسية. يظهر ردّ الدول الأوروبية على الحرب في أوكرانيا أنها تستطيع تبني سياسة خارجية متماسكة وحازمة عند الحاجة. إنهم بحاجة إلى تكرار هذا الجهد في جوارهم الجنوبي. يجلب الأوروبيون بالفعل الكثير إلى طاولة المفاوضات فيما يتعلق بالمشاركة الاقتصادية والمالية والسياسية – وهو أمر غالباً ما لا يحظى بالتقدير الكافي. لكن إذا أراد الأوروبيون تشكيل الديناميكيات الجيوسياسية للشرق الأوسط فإنهم بحاجة إلى أن يكونوا أكثر وضوحاً بشأن ما يمكن تحقيقه. سيتطلب هذا من أوروبا إظهار البراغمية المبدئية في الاعتراف بالمنطقة كما هي – وليس كما تريدها – في السعي لتحقيق مصالحها الأساسية. إنهم بحاجة إلى القيام بذلك بطريقة تتجنّب التنازل عن النفوذ للجهات الفاعلة الإقليمية، والتي لا تزال تتماشى مع مبادئها المهيمنة – من خلال التركيز على دعم المصالح التدريجي الذي ينطلق من القاعدة اللازمة لتحقيق الاستقرار على المدى الطويل. يجب أن يتضمن هذا النهج استغلالاً أكثر فعالية للفرص التي يوفرها دعم الاستقرار، مع إعادة تشكيل العلاقة عبر الأطلسي لتعزيز فعالية السياسة الغربية على أساس الاعتراف بأولويات أوروبا والولايات المتحدة المتغيرة. الأهم من ذلك هو أن على الأوروبيين أن يقاوموا محاولات النظر إلى المشاركة الإقليمية من خلال العدسة الضيقة لمنافسة القوى العظمى. هذا النهج من شأنه أن يقلل من مخاطر المزيد من الاستقطاب في الشرق الأوسط وسوف يتماشى مع مصلحة أوروبا في تحقيق الاستقرار في المنطقة. من المؤكد أن الأوروبيين بحاجة إلى مواجهة النفوذ الروسي والصيني المتزايد في جوارهم الجنوبي. لكنهم ما زالوا بحاجة إلى الحفاظ على مساحة لبعض التنسيق مع روسيا والصين بشأن المصالح المشتركة المهمة المتعلقة بأمن الطاقة وضرورات الاستقرار. في السنوات الأخيرة أظهرت الصراعات بالوكالة المدمرة في دول مثل ليبيا وسوريا إلى أي مدى يمكن أن تؤدي التغييرات الجيوسياسية في الشرق الأوسط إلى عدم الاستقرار. مع تكيف دول الشرق الأوسط مع النظام الإقليمي الجديد، والانتقال بتردد من

الحرب إلى الدبلوماسية، يجب على أوروبا استخدام هذه التعددية القطبية الناشئة لدعم الجهود الدبلوماسية المملوكة إقليمياً لتهتئة النزاعات والمساعدة في استقرار المنطقة.